المدرسة ودورها في بناء "دونية الأسود" و "تفوق الأبيض" لدى التلميذ المغربي

The Role of School in the Construction of "Black Inferiority" and "White Superiority" in Moroccan Students.

أ. ياسين يسني، جامعة محمد الخامس-المغرب

ملخص: نعالج في هذا المقال التمييز اللوني اللغوي وهو شكل خفي من التمييز تجاه السود والذي هو موضوع جهل وتجاهل، سنحاول أن نبين كيف أن وضع السود بشكل عام والجسد الأسود بشكل خاص، متأثر بشكل كبير بالرمزية التي ألصقت تاريخيا بالسواد كلون وكيف تنتقل دلالات اللون الأسود اللغوية إلى الجسد و تحوله إلى جسد أسود ولا مرئي، جسد الجن والعفاريت والظلمات والخوف، سنكشف في هذا المقال عن دور المدرسة في إعادة بناء دونية الأسود الرمزية لونا وجسدا وترسيخها في ذهنيات الأطفال منذ أولى مراحل التعليم الابتدائي، اهتمامنا بتحليل محتوى الصور التي تضمها الكتب المدرسية نابع من أهميتها ليس فقط في ما يخص التعلم بل أيضا لكونها تساهم بشكل كبير في بناء تمثلات الطفل للغير و لذاته.

الكلمات المفتاحية: السود، الكتب المدرسية، المغرب.

Abstract:This article addresses language-based discrimination towards blacks as an underinvestigated and latent form of prejudice. We will attempt to demonstrate that the status of blacks in general, and black body, in particular is the site of the symbolism that has been historically associated with black as color and as a negative linguistic construction that has been grafted onto the black body, as an invisible entity where fear of the devil, djin and evil spirits are articulated. We will unpack the role of the school in the reproduction and reinforcement of the inferiority of black, both as a color and as a body in the minds of children since the early stages of primary school education. Our sociological investigation is informed by visual sociology to engage in content analysis of textbooks images, an attempt that stems from our belief that such vehiculated images partakes to the formation of child's representation of the self and the other.

Keywords: black, textbooks, Morocco.

مقدمة:

السود في المغرب لا يعانون من عنصرية لونية مؤسساتية بل هم ضحايا "عنصرية عفوية" «Racisme ordinaire» تعبر عنها كلمات ونظرات ولقطات سينمائية ولا مرئية إعلامية وسياسية وثقافية وفظاعة الصور النمطية التي تخزلهم في مكانة اجتماعية دونية.

إن المقابلات التي أجريناها، في إطار بحث الدكتوراه حول موضوع السود في المغرب، كشفت لنا عن الكثير من المواقف المحرجة التي يعيشها سود البشرة في المجتمع المغربي، بسبب هذا النوع من العنصرية، وخاصة في تفاعلهم مع الأطفال الصغار الذين يبكون ويهربون خوفا وفزعا منهم.

فكيف ترسخت صورة الأسود المخيف القديمة في أذهان هؤلاء الأطفال في هذه السن المبكرة؟ كيف استطاعت هذه التمثلات والسلوكات "العنصرية" التي تعبر عن "رهاب السواد""Négrophobie " التسرب إلى عقولهم الصغيرة؟ ما دور المدرسة في ترسيخ هذه الصورة النمطية التي تجعل من السواد مرادفا للشر؟ ماذا عن مرئية سود البشرة في الكتب المدرسية كما وكيفا وخاصة تلك التي يتفاعل معها الأطفال في المرحلة الابتدائية؟

إن الحديث عن الإنسان الأسود يتجاوز وضعه، فاللون الأسود كما علمتنا مؤسساتنا الاجتماعية وخاصة المدرسة، لون الجن والعفاريت والخوف والظلمات والقبر والعدم، هذا الشكل من التمييز يخترق اللغة ونحن نعيد إنتاجها من خلال الحرص على سلامة كلماتنا ومعانيها ونعاقب كل من أساء استعمالها(ابراهيم محمود، 2015) الصور النمطية الحاضرة في اللغة، هي مأوى الكثير من الإيديولوجيات، ويتم استثمارها في خطاب المعلمين في اللحظة التي سيتكلمون فيها أو سيكتبون أو سيشرحون الدرس لتلامذتهم، عملية إعادة إنتاج الصورة النمطية التي تربط السواد بالشر تتم خارج إرادة هؤلاء الفاعلين التربويين.

ولأن الكتب المدرسية تلعب دورا كبيرا في بناء الهوية الاجتماعية، فقد استطاع الكتاب المدرسي أن يفرض نفسه على فهم الأطفال والأساتذة الذي قلما يسائلونه، فإذا كانت تنقل هذه الكتب معارفا فهي تنقل أيضا مجموعة من الصور النمطية سواء كانت عرقية أو اجتماعية أو جنسية (Fanny Lignon, Vincent Porhel,2012, p2) من هنا تنبع ضرورة كشفها والمساهمة بذلك في تحقيق تساوي الحظوظ ونشر قيم التسامح وقبول الآخر المختلف جسدا ودينا وجنسا.

من الملاحظ جيدا أن مرئية المرأة في الكتب المدرسية قد تطورت كما تم تجاوز مجموعة من الصور النمطية، رغم مقاومتها، إلا أن قضية مرئية السود لم يكتب حولها شيء ولم تتحرك أية جمعية للضغط من أجل مرئية نوعية وكمية جيدة. هناك الكثير من المقالات والمؤلفات التي حاولت مقاربة الصور النمطية المرتبطة بقضايا النوع من خلال التركيز على الصورة التي تعرض بها المرأة في الكتب المدرسية والأدوار الاجتماعية التي توضع فيها مقارنة مع الرجال، وقد اتفق معظمها على دورها في إعادة إنتاج الهيمنة الذكورية، من الملاحظ جيدا أن مرئية المرأة في الكتب المدرسية قد تطورت بفضل هذه الدراسات كما تم تجاوز مجموعة من الصور النمطية رغم مقاومتها، لكن، قضية مرئية السود في الكتاب المدرسي لم يكتب حولها شيء في العالم

العربي بشكل عام والمغرب بشكل خاص، نادرة هي الدراسات، إن لم نقل منعدمة، التي خصصت لصورة السود في الكتب المدرسية المغربية وعن دورها في إعادة إنتاج الهيمنة اللونية البيضاء، كما نتحدث في هذا المقال عن شكل لغوي ولساني من التمييز اتجاه السود والذي هو موضوع جهل وتجاهل، سوف نحاول أن نبين كيف أن وضع السود بشكل عام والجسد الأسود بشكل خاص، متأثر بشكل كبير بالرمزية التي ألصقت تاريخيا بالسواد كلون وكيف تنتقل دلالات اللون الأسود اللغوية إلى الجسد وتحوله إلى جسد أسود، سنكشف في هذا المقال عن دور المدرسة في إعادة بناء دونية الأسود الرمزية لونا وجسدا.

منهجية العمل:

تحضر الصورة بقوة في هذا العمل كمعطى للتحليل والوصف والتأويل ودعم تحليلنا السوسيولوجي، منهجيا المعطيات التي يمكن جمعها من خلال الاستمارات والمقابلات لا تختلف كثيرا عن الطريقة التي يمكن أن نجمع من خلالها المعطيات من خلال الاعتماد على الصورة (Fabio La Rocca, 2007, P35) يجب التفكير في الصورة كنص أي كنسيج قادر على تكوين مجموعة من الدلالات التي يمكن وصف طرق اشتغالها واستخلاص آثاره، إنها شبيهة بنموذج تعبيري وتواصلي، نموذج يظهر كما يخفي، أداة تضم ثلاث مبادئ أساسية للتحليل: الوصف ثم البحث في السياقات و أخيرا التأويل(Fabio La Rocca ,2007,P34).

نتحدث في "السوسيولوجيا البصرية" "Sociologie visuelle"، عن "السوسيولوجيا الممارسة على الصورة" "Sociologie sur l'image "أي سوسيولوجيا تقوم على أساس تأويل وتحديد المعاني الرمزية للصور المنتجة في إطار أنشطة اجتماعية، نتحدث هنا عن اشتغال على صور موجودة مسبقا كما هو الحال في الكتب المدرسية التي حللنا محتواها البصري.

لقد أدرك علماء التربية أهمية الصورة في تعليم وتربية الطفولة، لذا أعطتها أهمية كبيرة، ونلمس ذلك في طغيان الصورة والرسومات في الكتب المدرسية، وهي الأقرب إلى نفسية الطفل وأكثر إقناعا في إيصال الأفكار ونشر قيم الحب والتسامح أو الكراهية والإقصاء، نظرا لأهمية الصورة في المرحلة الابتدائية حاولنا التركيز عليها بشكل أساسي وعلى النصوص المرافقة لها بشكل هامشي فالصورة كما لاحظنا في هذه الكتب ونظرا لكثرتها فقد أخذت مكانة الكلمة(حلقوم نورة ، الشارف عبد القادر، 2016).

اهتمامنا بالصور التي تضمها الكتب المدرسية نابع من أهميتها ليس فقط في ما يخص التعلم بل أيضا فيما يخص نماذج تمثل الذات المقدمة للتلاميذ وآبائهم، لذا فمقاربة مرئية السود في الكتب المدرسية سمح لنا بتوضيح كيف أن التلاميذ هم كائنات اجتماعية قادرة على بناء تمثلات معينة حول الجسد الأسود من خلال المدرسة وتجسيدها في سلوكات تمييزية قائمة على أساس لون البشرة.

اعتمدنا، إلى جانب تحليل محتوى الصورة، على المعطيات التي جمعناها من خلال المقابلات النصف موجهة التي أجريناها في إطار بحث الدكتوراه الذي خصصناه لتمثلات سود البشرة في المتخيل الاجتماعي المغربي.

نقصد في هذا العمل بالأسود كل الأجساد التي تبدو لنا سوداء، تحديد السود كان تحديدا ذاتيا كما يشمل تحديد أسود كل ما ورد في هذه الكتب مشار إليه بهذه الصفة صراحة سواء تعلق الأمر بشخصيات حقيقية أو كارتونية.

نهدف من خلال هذا المقال تحقيق دراسة كمية وكيفية لصورة السود أي تحديد الحضور الكمي للسود في هذه الكتب المدرسية المغربية وخاصة كتب القراءة في المرحلة الابتدائية بسنواتها الست وأيضا الكيفية التي يعرضون بها في الدرس المغربي خاصة في المرحلة الابتدائية، وقد غطت هذه الدراسة السنوات الدراسية من الأولى ابتدائي حتى مستوى السادس ابتدائي. نقترح في هذا المقال إعادة قراءة عرقية و لونية للكتب المدرسية المغربية.

على المستوى الكمي: الكتب المدرسية ولا مرئية سود البشرة:

الصور النمطية التي تروجها الكتب المدرسية لها تأثير كبيرة على هوية الأطفال وتمثلهم لذواتهم والآخرين. المضامين التربوية تمر عبر المقاربات التي يعتمدها المدرس والصور التي تؤثث الكتب المدرسية التي تضم الكثير من التمثلات الاجتماعية للواقع. من خلال نقل مجموعة من المعارف تستطيع الكتب المدرسية نقل مجموعة من الصور النمطية والتمثلات الاجتماعية، في فرنسا قام "المجلس الأعلى لمناهضة التمييز" بدراسة حول الكتب المدرسية وقد قاد هذه الدراسة رجال قانون وعلماء نفس وعلماء اجتماع، لقد كانت مهمتهم مزدوجة أولا تقييم طريقة معالجة التمييز في الكتب المدرسية الخاصة بالتربية المدنية التي غايتها توعية التلاميذ فيما يخص القضايا الاجتماعية والمواطنة التي تعتبر مكافحة التمييز أحد مكوناتها الأساسية، ثانيا، محاولة كشف الصور النمطية المنسوجة حول مختلف المجموعات الاجتماعية التي يمكن أن تحملها هذه الكتب.

للكشف عن مرئية السود في الكتاب المدرسي وقياس تمثيلية السود في الصور الفوتوغرافية أو الكارتونية التي تحضر بقوة في مثل هذه الكتب الموجهة للأطفال وخاصة تلك المتعلقة بأنشطة القراءة، اخترنا "كتب القراءة" لأنها تكتسب أهمية خاصة سواء من حيث الساعات المخصص لها وأيضا احتواؤها على الكثير من الصور، نظرا لتعدد الكتب بسب تعدد دور النشر المغربية، طلبنا من معلمة في مستوى الابتدائي مدنا بالكتب المدرسية الخاصة بمستويات الإبتدائي الست المتوفرة لديها، هذه العينة التي تضم ست كتب مدرسية خاصة بالقراءة هي الكتب المستخدمة حاليا في المدرسة المغربية العمومية، حاولنا عد الشخصيات البيضاء والسوداء الكارتونية والحقيقية التي تضمها صور هذه الكتب وقد حصلنا على الجدول التالي:

الكتاب المدرسي– القراءة – اللغة العربية	عدد الشخصيات الفوتوغرافية و الكارتونية "البيضاء".	عدد الشخصيات الفوتوغرافية و الكارتونية "السوداء".
الكتاب المدرسي: المفيد في اللغة العربية كتاب التلميذ، السنة الأولى من التعليم الابتدائي،دار الثقافة للنشر و التوزيع،2011 ، عدد الصفحات146	542	0
الكتاب المدرسي: مرشدي في اللغة العربية كتاب التلميذ، السنة الثانية من التعليم الابتدائي،دار الثقافة للنشر و التوزيع،2003، عدد الصفحات 175	469	0
الكتاب المدرسي: المفيد في اللغة العربية كتاب التلميذ، السنة الثالثة من التعليم الابتدائي،دار الثقافة للنشر و التوزيع،2012، عدد الصفحات 223	429	6
الكتاب المدرسي: المفيد في اللغة العربية كتاب التلميذ، السنة الرابعة من التعليم الابتدائي،دار الثقافة للنشر و التوزيع،2012، عدد الصفحات 223	32	2
الكتاب المدرسي:مرشدي في اللغة العربية كتاب التلميذ، السنة الخامسة من التعليم الابتدائي،افريقيا الشرق،2004، عدد الصفحات 239	152	7
الكتاب المدرسي: في رحاب اللغة العربية كتاب التلميذ، السنة السادسة من التعليم الابتدائي،الدار العالمية للكتاب،2009، عدد الصفحات 240	64	5
المجـــــــــمـــــــــوع العام 1743 شخصية	1723	20
نسبة الشخصيات البيضاء و السوداء المئوية	% 95,85	% 1.18

جدول يعكس الحضور الكمي للشخصيات "السوداء" و "البيضا"ء في صور الكتب المدرسية – كتب القراءة المستوى الابتدائي.

من خلال هذا الجدول يمكننا أن نستنتج بشكل سريع نسبة تمثيل الشخصيات السوداء البشرية والكارتونية الهزيل في الكتب المدرسية الخاصة بالمرحلة الابتدائية، حضور الشخصيات "البيض" في كتب المرحلة الابتدائية مثل 95,85 % مقابل 1.18 % بالنسبة للشخصيات السود، نسجل هنا غيابا مهولا ومثيرا للدهشة في السنتين الدراسيتين الأولى والثانية حيث جردنا "صفر صورة" لطفل أو أب أو أم أو أسرة أو معلم أسود مقابل 542 صورة "بيضاء" في كتاب الأولى ابتدائي و469 في الثانية ابتدائي.

ليس الفضاء السياسي والإعلامي الوحيدان اللذان يغيبان سود البشرة المغاربة، فحتى الفضاء الثقافي يغيبهم، وخاصة الكتب المدرسية التي تلعب دورا كبيرا في عملية التنشئة الاجتماعية وترسيخ أو تصحيح الصور النمطية المنسوجة حول بعض الأقليات، النقاشات الحالية في مجموعة من الدول الأوروبية حول تمثيلية الأقليات في الكتب المدرسية تعكس مدى أهمية هذا الموضوع وراهنيته، فهناك حاجة حقيقية بالنسبة للأقليات للإحساس بحضورهم ووجودهم في مثل هذه الكتب الموجهة للأطفال.

السود ممثلون بشكل جد ضعيف في الكتب المدرسية المغربية، سواء كأطفال أو تلاميذ أو مدرسين أو أسرة أو مهن ذات حظوة اجتماعية فكل الأطباء والعلماء والمعلمين بيض بشرة وبذلة. غياب الشخصيات السوداء تساهم في بناء تمثل سلبي للذات لدى السود، كما يساهم هذا في

نشر تمثل أن السود ليسوا فاعلين ثقافيين وشخصيات علمية، وترسخ في المقابل تصورا سلبيا للسود حتى لدى السود أنفسهم، الضعف المفرط المتعلق بالاعتراف والتعريف بالأدوار الواقعية للسود تجعل من مسألة قبول الذات والجسد الأسود مسألة صعبة، أما الحضور الخافت للسود يتم حصره في بعض الصور التي تعبر عن قيم التسامح حيث يحضر السود في دور "الضحية" أو في بعض المهن ذات الحظوة والتعويض الضعيفين كالخرازة والرقص الفولكلوري والرياضة وبعض المشاكل التي تعاني منها القارة الإفريقية كالحروب والجوع (أنظر مثلا الصورة1 [1] والصورة 22).

من خلال ما سبق نلاحظ الغياب الشبه التام للسود في الكتب المدرسية ويمكن إرجاع ذلك إلى دونية السود الاجتماعية في المجتمع المغربي التي تتحول إلى لا مرئية على مستوى الكتب المدرسي، فما دام المجتمع المغربي يتمثل الجسد الأسود كجسد دوني(جسد العبد في الماضي والمهاجر جنوب الصحراء في الحاضر) مقارنة مع الجسد الأبيض(جسد الأوروبي المهيمن) فهو لن يكون مقنعا، ضمان نجاح الصورة في الإقناع ونقل المعلومة متوقف على ربطها بأجساد جميلة ومثيرة وهي معايير الجمال التي يتوفر عليها الجسد الأبيض، لذا فحضور السود الجد نادر يرتبط بأدوار دونية ومتوافقة مع تمثلات المخيال الاجتماعي للسود وهي أدوار ذات رمزية ماضية مرتبطة بالعبودية، في المغرب لا يمكن أن تكون صورة الأسود مقنعة إلا عندما يتوافق حضورها مع الصور النمطية الدونية السائدة حول البشرة السوداء.

خلاصة القول، مقاربتنا الكمية لهذه الكتب المدرسية سمحت لنا من تكوين فكرة عن الوضع "الإيكونوغرافي" الكمي الذي يعيشه السود في المغرب وهو ليس سوى انعكاس وفي لواقعهم الاجتماعي، تغييب سود البشرة عن الكتب المدرسية فيه تغييب لمكون مغربي أساسي، هذا الواقع "الأسود" الكمي الهزيل يرافقه واقع نوعي "أسود" أكثر هزالة منه.

[1] الصورة 1: الكتاب المدرسي: المفيد في اللغة العربية كتاب التلميذ، السنة الرابعة من التعليم الابتدائي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 2012، ص57

[2] الصورة 2: الكتاب المدرسي: المفيد في اللغة العربية كتاب التلميذ، السنة الثالثة من التعليم الابتدائي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 2012، ص 120

على المستوى الكيفي: "التحيز اللوني الأبيض" وجذوره:

إننا اليوم وأكثر من أي وقت مضى، نعيش في عالم تغزوه الألوان، ألوان توظف إما للتهميش أو الإقصاء أو القبول، كما أن للألوان تاريخ، فالأبيض عرف تاريخيا كلون البراءة والصفاء والنور الإلهي، رمزيته هذه لم تتغير عبر التاريخ ولا زالت ثابتة إلى يومنا هذا، كما أن الأبيض هو لون القوة والسلطة والمركزية الكولونيالية التي تهيين على العالم بما في ذلك ما ننعته بالعالم الأسود أو القارة السوداء أي إفريقيا (Pascal Blanchard,Gilles Boetsch et Dominique Chevé,2008,P10)، تتميز العائلة البشرية بأنواع لا متناهية من الألوان ولكنها غالبا، ما تختزل في تقابل أبيض أسود، تقابل سيشرعن "التراتبية العرقية" التي باركتها المؤسسة الدينية والعسكرية والمعرفية (Régine detambel,2008, p21).

نتحدث عن الكثير من أنواع التمييز إلا أن التمييز اللساني" Discrimination linguistique " هو موضوع تجاهل مزدوج المعنى، فهو من جهة، تجاهل "المجهول" الذي لا نعرف أنه موجود ولا نراه، ومن جهة أخرى فهو تجاهل "اللامبالاة" الذي لا نعيره اهتماما عندما نراه. التمييز اللساني يمكن اعتباره تمييزا لأنه كذلك على المستوى الأخلاقي بالرغم من أنه ليس كذلك على المستوى القانوني(Philippe BLANCHET, 2016, P26) قليلون هم الباحثون والمناضلون الذي يربطون بين ما هو لساني والتمييز، لأن هذا الشكل من التمييز منتشر في حياة الأفراد والمجتمعات اليومية ويتكرر باستمرار إلى درجة أنه أضحى يعبر عن "العادي".

لقد حذر الكثير من علماء الاجتماع من الأدوار الايديولوجية التي تلعبها المدرسة خاصة في ما يتعلق بإعادة إنتاج نفس التراتبية الاجتماعية سواء تعلق الأمر بالتراتبية الطبقية أو الجنسية، ونخص بالذكر هنا أعمال السوسيولوجي الفرنسي "بيير بورديو" حول النظام التعليمي الفرنسي، ولكن ليست هناك دراسات ساءلت المدرسة ودورها في إعادة إنتاج نفس التراتبية اللونية التي يعتلي قمتها الأبيض حساب الألوان الأخرى وخاصة الأسود.

الكثير من النسائيات يحذرن اليوم من الدور التي تلعبه المدرسة من خلال اللغة في بناء وإعادة بناء الهيمنة الذكورية والصور النمطية الخاصة بالنوع الاجتماعي، وقد وجهن انتقادهن لغلبة المذكر على المؤنث في الجمع وعن غياب تسميات مهنية خاصة بالمؤنث. تدعو الحركة النسائية إلى تشجيع الكتابة الشاملة «Ecriture inclusive»، التي أثارت جدالا واسعا في فرنسا بعدما تم دمجها في أحد مقررات المستوى الابتدائي ما أثار غضب الأكاديمية الفرنسية التي تميزت منذ عهد "كلود ليفي ستراوس"[3] بذكوريتها، فإذا كان تأنيث اللغة يعمل على قلب غلبة كمية للمذكر على المؤنث فغلبة اللون الأبيض في اللغة هي غلبة رمزية منسية. إلى حد اليوم لم نشهد دراسة أو حركة اجتماعية تسائل التفوق الرمزي للأبيض على اللون الأسود ودور المؤسسة التعليمية في صناعة هذا التفوق.

اللون كرمز له مجموعة من المعاني الاجتماعية التي تختلف عبر الأمكنة والأزمنة كما يحمل اللون قيمة تتأرجح بين السلبية والإيجابية كما أن رمزية اللون والمعاني التي تضفى عليه توظف

[3] "كلود ليفي ستراوس" الأنثروبولوجي الفرنسي الكبير كان من أبرز معارضي ولوج النساء إلى الأكاديمية الفرنسية.

في تصنيف وترتيب الأشياء والبشر، إنه محدد اجتماعي، يمكن من خلاله فهم المحيط الاجتماعي، في ماضيه وحاضره، كما أنه معيار مهم يقيم الناس على أساسه ويصنفون، اللون هو مصدر دائم لترتيب البشر والحكم او التهكم عليهم ، كما أنه مثير للنظرات المحتقرة، إنه إعاقة تحول دون الاستمتاع بالرابط الاجتماعي(Pascal Blanchard ,2008,P145) اللون كوصم علامة تسجن الآخر في عالم "المختلف" و "اللاعادي"، كما أن اللون في نظر الشاعر السنغالي "لـ.سنغور L.Senghor" أشبه بالسجن الذي يحجب حقيقة الشخصية(بنعيسى بوحمالة،1989، ص227) لقد كان لون البشرة من أهم المعايير التي على أساسها صنف الأنتربولوجيون " الأعراق"، فهناك الأبيض والأصفر والأسود والأحمر، هذا الترتيب الهرمي تمخضت عنه تراتبية " الأعراق"، تراتبية سيهيمن عليها الأبيض.

رمزية الأسود السلبية المرتبطة بالشر نجدها حاضرة في القواميس العربية(اللغة الأولى) والفرنسية(اللغة الأجنبية الأولى) التي توظف كثيرا في الفصول الدراسية المغربية وفي العملية التعليمية والتعلمية بشكل عام، القاموس وكوسيط ثقافي مهم، يلعب دورا مهما فيما يخص حركية الصور النمطية عبر نسق إيديولوجي قديم، فبفضل القاموس تستطيع الأيديولوجية السفر عبر الزمن مختبئة في لغة خطاب متلقي معين سيستثمرها في خطابه اليومي الكتابي و الشفوي. تلعب القواميس دورا كبيرا في إعادة إنتاج وتنشئة الأفراد منذ نعومة أظافرهم على ترادف أسود شر، ومن خلال المعنى القاموسي للأسود والأبيض سيعاد إنتاج نفس الأفكار والصور التي تحملها هذه اللغة ويضمن بدوره استمرارها (Claver Bibang, 2012, P110).

تكرس المدرسة من خلال اللغة رمزية اللون الأسود السلبية واللون الأبيض الإيجابية وتغرسها في التلميذ منذ سنواته الدراسية الأولى، في اللغة الفرنسية والعربية هناك مجموعة من العبارات التي تجسد الأسود كممثل للشر، لكل ما هو مزعج و"لاقانوني" و"سلبي" كـ: "أن تكون لك أفكار سوداء"، "أن تكون في اللائحة السوداء"، "رمي نظرة سوداء"، "السوق السوداء".

تحكي لنا أحد المدرسات أن "أغلب المسرحيات التي تقام في المدرسة دائما يكون الأشرار فيها يرتدون اللون الأسود والأخيار يرتدون اللون الأبيض، إلى درجة أنه في إحدى المسرحيات تم صبغ وجوه من كانوا يلعبون دور الأشرار باللون الأسود"، كما حكت لنا قصة تلك الأم التي "عاتبت معلمة ابنها التي أجلست بجانبه تلميذا أسودا، واستنكرت فعلتها بقولها "لماذا اخترت ابني وبالضبط، كأن الجلوس بجانب تلميذ أسود بالنسبة لهذه الأم كان عقابا".

المدرسة تلقن فكرة "أسود شر" معتمدة في ذلك على مجموعة من الأنشطة التربوية كالقصة، المسرح، الرسم والشعر، التي يمثل فيها الأسود سواء كان شيئا أو إنسانا كشر وحزن وبؤس وفي المقابل نجد الأبيض كممثل للخير والفرح والصفاء، هذه الرمزية نجدها أيضا حاضرة في الرسوم المتحركة والأفلام السينمائية وبعض الطقوس الثقافية التي قد يشاهدها الطفل.

في حديثنا مع إحدى أستاذات اللغة العربية أكدت لنا "أن الكثير من الأساتذة وخاصة أساتذة اللغة العربية والفرنسية والانجليزية وحتى الفنون التشكيلية مكونون على أساس الربط بين السواد والشر في تحليلهم للقصائد الشعرية أو مقتطفات النصوص الأدبية أو الصور أو اللوحات الفنية"، كلنا يتذكر كيف أن الطلبة الأساتذة سنة 2015 في نضالهم من أجل الإدماج المباشر في الوظيفة

العمومية بعد انتهاء التكوين، استثمروا رمزية السواد في إحدى مسرحياتهم أمام البرلمان(أنظر الصورة3).

مثل السواد هنا ما سمي بـ"المرسومين الوزاريين المشئومين" أما البياض فقد مثل قضية الطلبة الأساتذة العادلة، صراع الخير والشر الذي هو صراع الأبيض والأسود سيلهم الكثير من الأساتذة وسينقلونه إلى دروسهم وأنشطتهم التربوية الموازية أي سينقلونه إلى عقول الكثير من التلاميذ السود والبيض على حد سواء.

الكتب المدرسية هي الأخرى تنقل للتلاميذ الكثير من الصور التي تربط السواد بالكثير من الرموز السلبية ولو بشكل ضمني خاصة في كتب القراءة الخاصة بالمستوى الابتدائي التي تعتمد على الكثير من الصور حتى التي تدعو إلى التعايش والصداقة بين مختلف الألوان. لو لاحظنا هذه الصورة(4)4 التي تجسد صورة الصداقة التي تجمع بين أطفال من مختلف الألوان "أبيض" و"أسود" و"أصفر" (البيت الأول: أبيض أو أسود أو أصفر .. نبني الآتي الحلو الأخضر)، أما في البيت الرابع (سلام الإنسان مهدد... والبيئة في ثوب أسود)، سيتحول "أسود" الصديق، أي إلى أسود مهدد إلى "حقيقته" التي تسكن اللاوعي الجمعي العربي كلون الفساد والتلوث الذي يهدد العالم والإنسان.

4 مرشدي في اللغة العربية، كتاب التلميذ و التلميذة، السنة الثالثة ابتدائي، أفريقيا الشرق ص66.

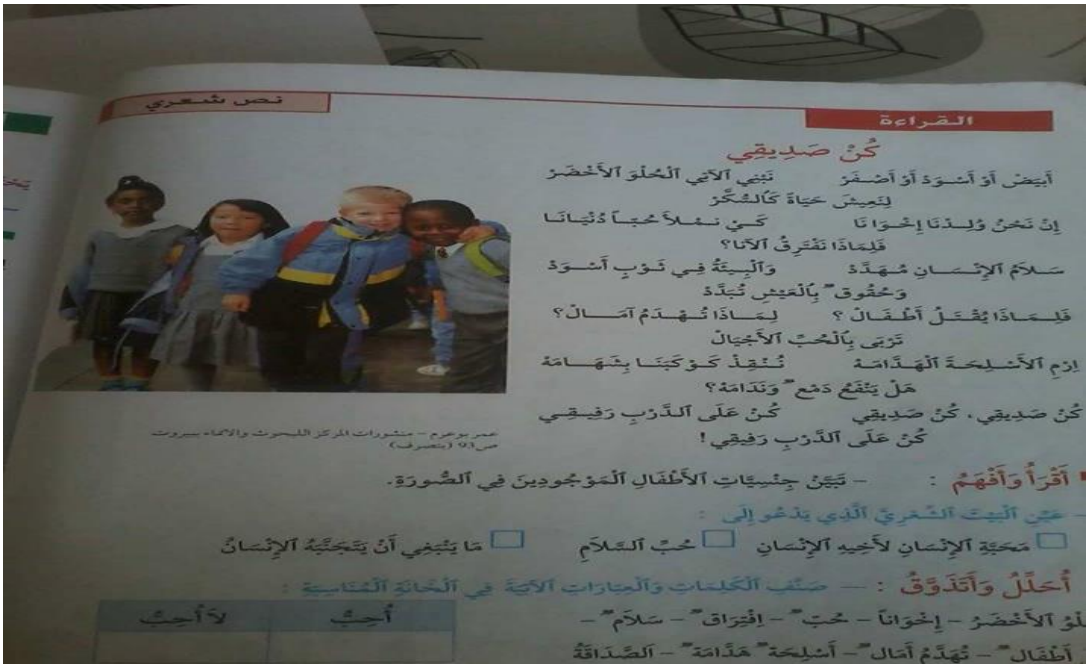

إدراك الصور النمطية العرقية ثم تفكيكها يحتاج تكوينا خاصا بالمدرس وهي منعدمة حتى في تكوين الأساتذة الجدد، تجذر الصور النمطية في متخيل الأستاذ تحول دون كشفه للتمييز الاجتماعي الذي قد تصنعه مثل هذه الصور والأبيات الشعرية خاصة مع غياب تكوين قادر على مدهم بالكفايات المعرفية والنقدية لتفكيك هذه المعطيات.

المدرسة المغربية وكما هو معروف ليست مدرسة علمانية حيث تشمل دروسها الكثير من الدروس الدينية المتمركزة حول الديانة الإسلامية، من خلال القصص الدينية والآيات القرآنية التي تحضر في دروس التربية الإسلامية تغرس في الطفل التلميذ سواء كان أبيضا أو أسودا صور سلبية عن اللون الأسود والبشرة السوداء.

لا زلت أتذكر عندما كنت تلميذا في مستوى السادسة ابتدائي كيف كان يمثل كتاب التفتح الفني الذي كان معتمدا في منتصف الثمانينات "الكفار" الذين عصوا وصايا "نوح"، لقد كانوا سودا وشعرهم أشعث بينما نوح وأتباعه المؤمنون بيض، ولا زلت أتذكر كيف كان يصف لنا المعلم الرسول بصاحب الوجه الأبيض والله بالنور الأبيض الساطع.

منذ بداية المسيحية، المسيح كان يرمز إلى نور العالم في مقابل الشيطان الذي كان يرمز إلى الظلمات و الجحيم، المسيح أو الملائكة كممثلين للخير سيتم تجسيدهما في المسيحية في أجساد بيضاء "فإذا كان المسيح أبيضا، فالخير إذن أبيض، وبهذا فالشر أسود"، كما هو معلوم، ستزدهر المسيحية في أوروبا وكان من الطبيعي أن يرسم "المسيح والملاك" على شاكلة الجسد الأوروبي، الإنسان الأبيض المهيمن المستعمر سيفرض تمثله للأشياء وأيضا للمعنى، فتجسيد

"المسيح" كرجل أبيض بصفات جسدية خارجية أوربية غايته تأكيد تفوق الإنسان الأبيض على الإنسان الأسود، وفي ذلك أيضا تملك للمسيحية من طرف الكنيسة الأوروبية واستغلالها وطمس لجذورها الشرقية لأن هيمنة الصورة تمنح هيمنة ثقافية.

في إحدى المقابلات أكد لنا أحد المستجوبين السود أن أخاه الصغير حكى له أن معلمتهم عرضت لهم فيلما كارتونيا قصيرا حول "فيل أبرهه والطير الأبابيل" لتبسط لهم فهم "سورة الفيل"، وقد أكد له معاناته في تلك الحصة من سخرية رفاقه منه حيث نعتوه بـ"أبرهه الحبشي" الذي كان أسودا شريرا وبشعا والأكثر من ذلك كافرا، تعبر هذه القصة المقدسة المبسطة عن صراع أبرهه الحبشي والرسول، الأسود والأبيض، الكافر والمؤمن، الشر والخير، عدنا إلى موقع "اليوتيوب" وبحثنا عن الأفلام الكارتونية القصيرة التي تبسط "سورة الفيل" للناشئة فتأكد لنا ما حكاه لنا المبحوث وقطعنا منها صور تبرز تقابل الشر والخير، الأسود والأبيض (5 5 و 6 6 و 7 7) كما تعبر عن صراع الأسود الكافر والمؤمن الأبيض وتعكس أيضا ما يمكن أن يمارس على الأسود التلميذ من عنف رمزي داخل الفصل الدراسي والتأثير السلبي لمثل هذه الوسيلة الديداكتيكية في تمثل رفاقه لجسده و في تمثله لذاته وصناعة هوية سوداء موصومة.

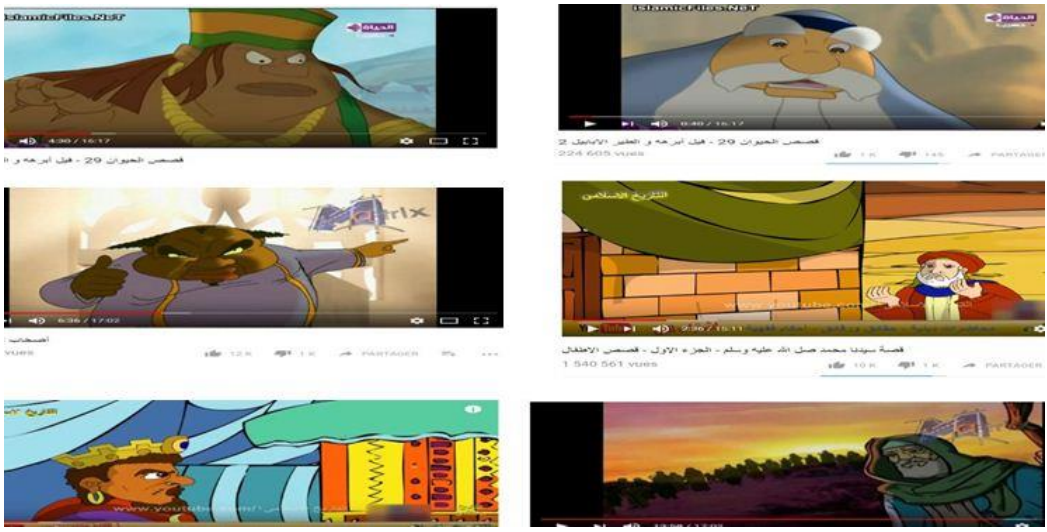

5 رابط الفيلم القصير:https://www.youtube.com/watch?v=LmwACvz

6 رابط الفيلم القصير: https://www.youtube.com/watch?v=6SYjDpOHvvs

7 رابط الفيلم القصير:https://www.youtube.com/watch?v=lgF6DY3tZZE

أغلب، إن لم نقل كل، الرسوم المتحركة التي يستهلكها الطفل المغربي يوميا خالية من الأبطال السود كما هو واضح فكل الأميرات الجميلات بيض وكل الدمى التي تغزو الأسواق المغربية في عاشوراء بشرتهن بيضاء وشعرهن أشقر وتخلو هذه الأسواق من الدمية السوداء غياب فسره لنا أحد الباعة بأن لا أحد سيشتريها لأنها مخيفة و مفزعة.

سيتأثر المتخيل الإسلامي الشعبي بالمتخيل المسيحي الشعبي في تمثله لسواد البشرة8، رمزية الجسد الأسود ذات الحمولة السلبية في المسيحية استمرت مع الديانة الإسلامية. لقد ارتبط الأبيض في القرآن الكريم بصورة سلبية واضحة، فهو دائما مرتبط بالكفر والفجور والردة والجهل والكذب على الله، أما الأبيض فيتسم بسمة إيجابية في غالب الأحيان فهو دائما مقترن بالإيمان والطاعةّ، فاللون الأسود يرمز للقبيح ومشحون بقيم سلبية.

ارتبط اللون الأسود وجسده بأهل النار والشر في المرجعية الإسلامية، كما أن الله لم يرسل أنبياء سود، لقد تأثر المتخيل الإسلامي الشعبي بما جاء في التوراة من أن السود أبناء حام، وأن هذا الأخير تم عقابه من خلال تحويل لونه من الأبيض إلى الأسود، الأسود كلعنة إلهية بررت اللعنة الاجتماعية، كما أن أطماعه الافريقية والاستعبادية سهلت هذا التأثر.

بنى القرآن رمزية السواد السلبية وجعل من البياض مكافأة مؤجلة فوضعهم اللوني لن يستمر فهم موعودون بالبياض يوم الجنة(ابراهيم محمود، 1998، ص270)، مكافأة صلاح السود الدنيوي غالبا ما كان يمر من خلال تحولهم من سواد البشرة إلى بياضها هذا التحول هو ما يجعل ولوج السود إلى جنة مسألة ممكنة ومنسجمة مع الآيات التي تؤكد أن وجوه الجنة بيضاء ووجوه الجحيم سوداء، ففي مؤلفه الشهير "رسالة الغفران"، كان يعوض أبو العلاء المعري شخصياته عن محن الدنيا بمقابل سخي في الآخرة، كقصة "توفيق السوداء" التي لم يكتف الله بمجازاتها بالجنة بل جزاها أيضا ببشرة بيضاء أي بشرة أهل الجنة، نفس التحول من السواد إلي البياض نجده في "ألف ليلة وليلة"، المتواجدة في رفوف الكثير خزانات المدارس المغربية، وبالخصوص في حكاية "ملك بن دينار مع العبد الأسود الصالح" ذلك العبد الزاهد الشديد التدين الذي صلى وحقق الله طلبه في استسقاء الأرض بعد جفافها ومات وهو راكع إلى الله وقد تحول لونه من السواد إلى البياض.

النصوص والقصص والعبر الدينية وشروحات القواميس التي تستثمر في الدرس المغربي توضح جليا النظرة السلبية للأسود التي لم تكن سوى النظرة الاجتماعية للسود في شبه الجزرة العربية وهي النظرة التي لا زالت مترسخة في اللاوعي الجمعي العربي إلى حد اليوم.

المسافة الفاصلة بين رمزية السواد في الأحلام واللباس والحيوانات والممارسة الكلامية اليومية وبين رمزية السواد في البشر قصيرة، بحيث تنتقل دلالات الأسود السلبية في الأحلام واللباس

8 يقدم الأسود في المسيحية كلعنة وكعقاب وهذا ما تجسده حكاية حام أحد أبناء نوح. ففي التوراة، السود أبناء حام، فحسب هذه الحكاية التي تسربت إلى المعتقد الإسلامي الشعبي، كان "حام" أبيضا ثم أصبح أسودا بسبب لعنة والده. ذلك أن "حام" رأى عورة والده "نوح" فضحك منها ولم يستح فلعنه نوح وطلب من الله أن يحوله إلى عبد لأخويه "سام" و"يافت"، فأصبح أسودا، من هنا، تم الربط بين اللون الأسود والعبودية بمعنى أن البشرة السوداء تحتم على صاحبها مصيرا اجتماعيا لا مناص منه، وهو أن يكون عبدا للأبيض .

والحيوان إلى البشر، فيصير بذلك الإنسان الأسود جنيا وشيطانا وشر خلق الله وأكثرها بطشا وجلبا للشؤم، الكثير من الأمهات يهددن أطفالهن، وخاصة ليلا، بالرجل الأسود الحامل لمقص الإخصاء الذي عانى منه الكثير من العبيد في الماضي القريب، وذلك لنيل طاعتهم كالنوم أو الامتثال لأمر ما، مثلا "ها الراجل لكحل جاي وهاز لمقص"(ها هو الرجل الأسود قادم و حامل للمقص).

حكى لنا المبحوثون السود مجموعة من المواقف التي تبين لنا كيف أن أسود البشرة يصبح مصدر خوف ورعب وخاصة بالنسبة للأطفال الذين ينظرون له ك"بوعو"(شبح)، وهذا ما يؤكده التصريح التالي:

" كان يزورنا شاب أسود عمره تقريبا 19 سنة، عندما يدخل المنزل يبدأ الأطفال الصغار في البكاء والصراخ ويظهرون خوفا شديدا منه، لقد كان هذا يضايقه كثيرا رغم أنه لا يريد إظهار ذلك، وتحاول الأمهات تدارك الموقف وإصلاحه عندما تدعوا إحداهن الأطفال لتقبيله باعتباره أخوهم، لكنهم يصرخون ويمتنعون وعندما تستفسر يكون الجواب "هذاك بوعو"،

حكى لنا أحد المبحوثين السود موقفا يشبه الموقف السابق كثيرا لكنه في هذه المرة هو من عاشه:

" بالنسبة لي في يوم من الأيام رأتني طفلة صغيرة وخافت مني وبدأت تختبئ وراء أمها وتبكي وتقول بوعو بوعو بوعو...ولكن هناك أطفال يرونك ولا يخافون منك ويقومون بتقبيلك"، كما أكدت إحدى المبحوثات أنها سبق لها أن بسملت عندما تفاجأت بأسود البشرة صاعدا في الدرج: "يمكن أن أقول بسم الله الرحمان الرحيم إذا رأيت أسود البشر إنني أخاف كثيرا، وأطلب من الله أن يسامحني، ففي يوم من الأيام كنت جالسة في الدرج وكانت الإنارة معطلة وإذا بي أفاجأ بصعود جارنا المغربي الأسود البشرة، لقد بدى في أول وهلة كجسم ضخم أسود لا تظهر منه سوى أسنان بيضاء، فبدأت أصرخ. وعندما كنت صغيرة كان أحد جيراننا السود يحاول تقبيلي وأنا كنت أهرب منه وإذا استطاع تقبيلي أحاول مسح مكان القبلة خوفا من أن أصير سوداء".

ربط الأسود بالشر، بمثابة منتوج أنتجه الفكر العبودي الذي اعتمد على مجموعة من المؤسسات المادية والرمزية من أجل شرعنة استرقاق سود البشرة و سجنهم في الدونية، مبرر "الدونية" كان من أبرز وأقوى مبررات العبودية، لقد كانت الثقافة العربية في حاجة كبيرة لهذه المغايرة الكلية بينها وبين الأسود: أولا، من أجل شرعنة استمرار نظام الرق والعبودية وتبرير المعاملة السيئة والقاسية لهم من خلال جعلهم كالسلعة التي تباع وتشترى وتمتلك وتضرب وترهق وتغتصب وتخصى، كما كانت هذه المغايرة مهمة بالنسبة للعربي المسلم وخاصة على المستوى النفسي فهي تزيح عنه الإحساس بالذنب وتقيه شر تأنيب الضمير اتجاه الأسود، فالنظر له كشيء أو كحيوان أو ككائن مرح ومطرب يخفف من الإحساس بالذنب عند المعاملة القاسية، رمزية اللون الأسود ستستثمر بشكل واسع وكارثي في عهدي العبودية والهيمنة الكولونيالية و في المقابل الأبيض سيكون لون الطهارة والقداسة والنظافة والعذرية والبراءة والسلام (Régine detambel ,2008,P21).

من خلال ما سبق استطعنا الوقوف على المرئية الهزيلة للسود كما وكيفا، كما أن ربط اللون الأسود بالشر ولامرئية الأجساد السوداء في الكتب المدرسية ووسائل الإعلام تجعل من سود

البشرة كائنات غريبة ومخيفة، مع تطور مسار التلميذ التعليمي ستترسخ صورة اللون الأسود السلبية وسيعيد إنتاجها في تحليله للنصوص وفي كتاباته الإنشائية وفي أعماله الفنية، كما ستزيد نظرته الانتقاصية للبشرة السوداء عندما لن يصادف ولو عالما أو مخترعا أو أديبا مغربيا أو أجنبيا أسودا لكنه، سينتهي بالعثور عليهم حفاة وعراة في الصور التي تحكي مآسي السود كمشاكل القارة الإفريقية وخاصة العبودية في دروس التاريخ كالتجارة المثلثية وجيش البخاري في إحدى المقابلات أكدت لنا أستاذة مادة الاجتماعيات في المستوى الثانوي التأهيلي، "أن حكم المولى اسماعيل وجيش عبيد البخاري تعكسه النصوص التاريخية المختارة في الكتاب المدرسي كإنجاز سياسي استطاع من خلاله هذا الحاكم توحيد جيشه وتقويته حيث يصعب قراءته كاستعباد لمغاربة فقط لأنهم سود كما أن هذه النصوص لا تشير إلى ثورة بعض رجال الدين على هذا الحدث".

متى سبق لك أن سمعت لأول مرة عن السود في مسارك الدراسي، عندما أطرح هذا السؤال فأغلبية المستجوبين يجيبون إذا لم أقل كلهم: "عندما نتناول موضوع العبودية" يعبر لاعب كرة القدم السابق والمناضل الأسود الفرنسي "لليان تورام" عن هذا في قوله: "لا زلت أتذكر أول مرة عندما تناولنا هذا الموضوع في المدرسة كنت الأسود الوحيد في القسم، لقد ذهلت وتساءلت ماذا عن تاريخ أجدادي قبل العبودية، لم تكن لي القدرة آنذاك على طرح مثل هذه الأسئلة، لقد أحسست أني معني بالأمر موصوم بالحديد ووحيد داخل القسم الذي أنظر إليه بطريقة مختلفة ومن الممكن أنه هو أيضا ينظر لي بنفس الطريقة، العبودية تتلخص إذن بالنسبة لي في: "البيض حولوا السود إلى عبيد، لفهم ردة فعلي يكفي أن تضع نفسك في مكاني، تخيل شابا أبيضا لم يسمع طول مساره الدراسي أحدا يتكلم عن عالم أبيض، أو ملك، أو مناضل أو فيلسوف أو فنان يقاسمه نفس لون البشرة. يعيش في عالم كل ما هو جميل وعميق وأصيل وخير وذكي وخالص يرمز إلى الأسود وحتى الإله الكائن الأعلى سيكون أسودا. تخيل عاصفة الغضب التي سيثيرها كل هذا فيه، هذا الطفل سيتساءل عن ما إذا وجد أبيض قام ولو مرة واحدة بشيء فيه خير. حتى تأتي لحظة يفرضها البرنامج الدراسي سنلقي له معلومة حول ذاته :"أجدادك كانوا عبيدا (Lilian Thuram,2010,P29)

خاتمة:

لامرئية سود البشرة المفرطة و مرئيتهم الهزيلة و المنمطة التي تحضر في المسار الدارسي للتلميذ المغربي، لا يمكنها سوى أن تغرس في السود منذ طفولتهم عقدة النقص، إنه لمن المهم بما كان أن نبين أن مرئية كمية وكيفية جيدة لسود البشرة في المحتويات الدراسية يمكن أن تؤدي إلى اعتراف سياسي واجتماعي بهم. فالفرد يحتاج إلى أن يحس بأنه موضوع اعتراف، والمرئية الجيدة في الكتب المدرسية كاعتراف رمزي مهمة بالنسبة لسود البشرة المغاربة، لكن إلى حد اليوم في المغرب لم نطالب بضرورة حضور سود البشرة في هذه الكتب وتحسين صورتهم وتمثيليتهم فيها.

عودة المغرب إلى إفريقيا وإقناع المغربي بإفريقيته ودفعه نحو قيم التسامح والتعايش مع المختلف لونا وثقافة كالسود المغاربة و إدماج مهاجري جنوب الصحراء السود الذين يوجهون

أبناءهم اليوم نحو المدرسة المغربية، لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال الاهتمام بالمكون الأسود المغربي وتحسين صورته لدى الناشئة كما وكيفا، ولا يمكن أيضا، أن يتحقق هذا الهدف إلا من خلال "تسويد" (كتشبيب وتأنيث) الكتب و المحتويات المدرسية ومساءلة العنصرية اللونية المغربية ونقلها من مستوى اللاوعي إلى مستوى الوعي و المساءلة.

قائمة المراجع:

1. بوحمالة بنعيسى(1989)،السياق التاريخي والثقافي للشعر الزنوجي الافريقي الأمريكي، المجلد الثالث، عالم الفكر.
2. حلقوم نورة، الشارف عبد القادر(2016)، خطاب الصورة في الكتب المدرسية، كتاب السنة التحضيرية أنموذجا.شوهد في 12-09-2016،في: https://www.asjp.cerist.dz/en/article/733.
3. محمود إبراهيم(1998)، جغرافية الملذات-الجنس في الجنة، رياض الريس للكتب و النشر، لبنان.
4. محمود ابراهيم(2016)،عنصريات متراحمة، شوهد في : www.alawan.org/2013/12/08/الجدران-اللامرئية-العنصرية-ضدّ-السّو-13 في 03-06-2016.
5. مختار عمر أحمد(1997)، اللغة واللون، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، عالم الكتب، الطبعة الثانية، القاهرة.

6. Bibang Claver(2012), Approches naïves du noir dans les médias français. Discours et identités problématiques, L'Harmattan, Paris.
7. BLANCHET Philippe(2016), Discriminations : combattre la glottophobie , Paris, Textuel, coll. Petite Encyclopédie critique.
8. Detambel Régine(2008),la peau, corps et couleurs, CNRS édition ; Paris.
9. La Rocca Fabio(2007)1 (no 95), « Introduction à la sociologie visuelle », Sociétés, p. 33-40. DOI 10.3917/soc.095.0033.35.
10. Lignon Fanny, Porhel Vincent, Rakoto-Raharimanana Hérilalaïna(2012), Genre et manuels scolaires au filtre des images. Article en ligne sur le carnet de recherche du groupe GEM (41 500 signes), http://gem.hypotheses.org/711.
11. Pascal Blanchard(2008),Signe ,corps et couleurs, CNRS édition; Paris.
12. Pascal Blanchard,Gilles Boetsch et Dominique Chevé(2008),L'identité dans tous ses éclats, corps et couleurs, CNRS édition ; Paris.
13. Thuram Lilian(2010), Mes étoiles noires, de Lucy à Barack Obama, Paris, Éd. Philippe Rey,